٣٦

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾[1]

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

اشتملت هذه الآيةُ على مَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ للحقِّ في ثباته وبقائه، والباطل في اضْمِحْلالِه وفنائِه. قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: مطراً ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي: أخذ كلُّ واحدٍ بحَسَبه، فهذا كبيرٌ ويَسَعُ كثيراً من الماء، وهذا صغيرٌ فوسِعَ بقَدَرِهِ. وهو إشارةٌ إلى القلوب وتفاوتِها، فمنها ما يَسَعُ علماً كثيراً، ومنها ما لا يتَّسِعُ لكثيرٍ من العلوم، بل يضيقُ عنها. ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا ﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه. (هذا مَثَلٌ).

وقوله: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ هذا هو المَثَلُ الثاني، وهو ما يُسبَكُ في النار من ذهبٍ أو فضةٍ ﴿ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ ليجعل

(١) الرعد:١٧.

حِليةً أو نُحاساً أو حديداً، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زَبَدٌ منه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ﴾ أي: إذا اجتمعا لا ثباتَ للباطل ولا دوام، كما أنّ الزَّبَدَ لا يثْبُتُ مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما ممَّا يُسبَكُ في النار، بل يذهبُ ويضمحل. ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ﴾ أي: لا يُنتَفَعُ به، بل يتفرَّق ويتمزَّق، ويذهبُ في جانبي الوادي، ويعلَق بالشجر، وتنسفه الرياحُ. وكذلك خَبَثُ الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهبُ ولا يرجع منه شيءٌ، ولا يبقى إلا الماء. وذلك الذهب ونحوه يُنتفَعُ به. ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ (١)

قال بعضُ السَّلَف: كنت إذا قرأتُ مَثَلاً من القرآن فَلَم أفهَمْهُ بكيتُ على نفسي؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ﴾ يقول: احتملَ السَّيْلُ ما في الوادي من عودٍ ودِمْنَة (٢) ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهو الذهبُ والفضةُ والحِليةُ والمتاعُ والنحاسُ والحديدُ، وللنحاس والحديد خَبَثٌ، فجعل الله مَثَلَ خبثه كزَبَدِ الماء، فأمَّا ما ينفعُ الناسَ فالذهب والفضة، وأما ما ينفَعُ الأرضَ فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل

(١) العنكبوت: ٤٣.
(٢) الدِّمْن: البعْر والكِرْس. والدِّمْنَة: الموضع الذي يجتمع فيه الغنم فتتلبّد أبوالُها وأبعارُها فيه.

ذلك مَثَل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزَّبَدُ، فكذلك الهُدى والحقّ جاءا من عند الله، فمَن عمل بالحقِّ كان له، ويبقى كما يبقى الماءُ ينفعُ الناسَ في الأرض، وكذلك الحديد لا يُستَطَاع أن يُجعَلَ منه سكين ولا سيف حتى يدخُلَ في النار، فتأكل خَبَثَهُ، فيخرج جيِّده، فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأُقيم الناس، وعُرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحقِّ.

أخي المسلم: ذاك مما ذكره الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾، ومَن تدبَّرَ ذلك أيقنَ أن العمل بالحقِّ باقٍ لا يذهب، وأن العمل بالباطلِ مُضْمَحِلٌّ ذاهب.

وهذه الحقيقة قد يغفل كثيرٌ من الناسِ عنها وهم يتقلَّبُونَ في زينة الحياة - ثباتُ الحقِّ ومُكثِه وبقائه، وزوالُ غيره - وقد تقودهم الغفلةُ عن هذه الحقيقة إلى اتِّباع الباطل في ساعةِ استدراجٍ لهم وإملاء، ثم يفجؤهم زوال ما اتَّبعوه، وقيام ما غفلوا عنه، وعندئذٍ يعلمون أن ما تعلَّقوا به - من غير الحقِّ - باطلٌ لا يمكُثُ ولا يبقى، وأنَّ الحقَّ وحده هو الذي يدوم ويبقى. والله هو الحقُّ، وما يُدعَى من دونه الباطل.

إن أحداً غيرَ الله لا يخلق شيئاً، بل يُخلَق. ولا يملك رزقاً، بل يُرزَق. وبالحقِّ يكون الخَلقُ والموتُ والنشورُ، وما أعدَّ من جنة أو نار. وكُلُّ ذلك لا يكون إلا بالحقِّ.

وقد ينكِرُ الناسُ الحقَّ ويجحدونه في فترةِ عُمرٍ أو ساعة غفلة، ونُكرانُ الحقِّ لا يعني غيابه، وجحوده لا يعني فُقدانه. وسُرعان ما تراهم - وقد أبصروا - يلومُون

obeikandi.com

أنفسَهم، ويتحسروا، ويقولون - في أسَفٍ ونَدَمٍ -: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾(١)

وجدوا الحقَّ، ولم يجدوا غيره. وكانوا من قبلُ قد جحدوه وأنكروه!

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾(٢)

إن الإيمانَ ببقاء الحقِّ حَريٌّ ألاَّ تنخدع النفس معه بزَبَدِ الباطل، أو تُستَخَفَّ بإملائه واستدراجه، أو تُؤخَذ بإغواء شياطينه، والذين يعملون على أن يُلبسوا الباطلَ ثوبَ الحقِّ، وأن يواروا الحقَّ بزَبَدَ الباطل، نقولُ لهم: هيهاتَ أن يبقى الباطلُ وأن يذهب الحقُّ؛ فإن الباطلَ محكومٌ عليه بالذهاب والفناء مهما طَفَا وبَدَا. وللحقِّ وحدَهُ الثبات والبقاء. ومَن اتَّبع الحقَّ سَلِمَ به، ومَن اتَّبعَ الباطلَ هلكَ معه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾(٣)

---

(١) الأعراف: من الآية ٥٣.

(٢) الأنعام: ٣٠.

(٣) محمد: ١ - ٣.

٣٧

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يُخبرُ الله تعالى عن مآلِ السُّعداءِ والأشقياء، فقال: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ﴾ أي: أطاعوا الله ورسولَه، وانقادُوا لأوامره، وصدَّقوا أخبارَه الماضيةَ والآتية، فَلَهُمُ ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهو الجزاءُ، كقوله تعالى مُخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)، وقال الله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٣)

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ أي: لم يُطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا

(١) الرعد: ١٨.
(٢) الكهف: ٨٧، ٨٨.
(٣) يونس: من الآية ٢٦.

﴿ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي: في الآخرة، لو يمكنهم أن يفتدوا من عذابِ الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه، لافْتَدَوا به، ولكن لا يُتَقبَّل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي: في الدار الآخرة. أي: يُناقَشُونَ على النَّقِيرِ والقطمير، والجليل والحقير. ومَن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ من تفسير هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

وتلك هي العاقبةُ لِمَن أحسنَ فاستجاب لربِّه فيما دعاه إليه وأَمَرَهُ به، ولِمَن أساء فلم يستجب وأعرض ونأى بجانبه ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ ﴾ تلك عاقبتهم، وهذا جزاؤهم ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ عاقبةٌ يحذرُها كُلُّ مَن يرجو لقاء ربِّه، فيُحسن ولا يسيء، ويُصلح ولا يُفسد، ويعبد الله ولا يشرك به شيئاً. هؤلاء الذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، لهم الحُسنى في الدار الآخرة ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (١)، كما قال الله ﷻ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢)، والزيادة: هي تضعيف ثواب

(١) الرحمن: ٦٠.
(٢) يونس: من الآية ٢٦.

الأعمال بالحسنة عَشْر أمثالها، إلى سبعمائة ضِعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يُعطيهم الله في الجِنان من القصور والحُور العين، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قُرَّةِ أعيُن. وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم؛ فإنه زيادة أعظم من كُلِّ ما أُعطَوه. لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ربِّهم ورحمته.

وقد رُوِيَ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر وحذيفه وعبد الله بن عباسٍ، وكثير من التابعين. وقد وردت أحاديثُ كثيرة عن النبي ﷺ، من ذلك:

ما رواه الإمامُ أحمدُ، عن صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أن رسول الله ﷺ تَلا هذه الآيةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾، وقال: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ [(١)] فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُجِرْنَا مِنْ النَّارِ ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ لَهُمْ الْحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلا أَقَرَّ بِأَعْيُنِهِمْ » [(٢)]

وذكر ابنُ جريرٍ عن أبي موسى الأشعرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ « إن الله تعالى يبعثُ يومَ القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوتٍ يسمعه أوَّلُهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة. فالحسنى الجنة، والزيادة النظرُ إلى وجه الرحمن عَزَّ وَجَلَّ »[(٣)]

---

(١) مِنَ الإنْجاز وَهُوَ الإيفَاء.

(٢) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة يونس، رقم٣٠٣٠، وقال: رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ حمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ مَرْفُوعًا.

(٣) تفسير الطبري: ٦٥/١٥، اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢٧٠/٢.

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ذاك جزاءُ مَن استجابوا لربِّهم وأحسنوا. لهم ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ أي: قتامٌ وسوادٌ في عَرَصَاتِ المحشر، كما يعتري وجوهَ الكفرة الفجرة من القَتَرِ والغَبَرَة ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ ﴾ أي: هوانٌ وصَغَار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقِّهم ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ (٢) أي: نَضْرَةً في وجههم، وسروراً في قلوبهم.

أخي المسلم: تدبَّرْ ما جاء في هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

تلك العاقبة لمن أحسن ولمن أساء، فليحاسب كُلُّ إنسانٍ نفسه، وليُخلص قَصْدَهُ، وليبصر عمله قبل أن تأتيَ ساعةُ الفصل التي يتحدَّدُ فيها المصير، وهي آتيةٌ لا رَيْبَ فيها ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

---

(١) يونس: ٢٦.
(٢) الإنسان: ١١.
(٣) آل عمران: ٣٠.

٣٨

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

هذا حال الأشقياء وصفاهم، وذِكر مآلهم في الدَّارِ الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتَّصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يُوفُونَ بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وهؤلاء، وهؤلاء ينقُضون عهدَ الله وميثاقه ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، كما ثبت في الحديث « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٢)، وفي رواية: « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » (٣)، ولهذا قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ وهي: الإبعادُ عن الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ وهي سُوءُ العاقبة والمآل ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٤)، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ... الآية ﴾ قال: هي ستّ

(١) الرعد: ٢٥.
(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٢٣.
(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣.
(٤) الرعد: من الآية ١٨.

obeikandi.com

خصالٍ في المنافقين: إذا كان فيهم الظَّهْرَة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتُمنوا خَانُوا، ونقضوا عهدَ الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظَّهْرَة عليهم، أظهروا الثلاثَ خصالٍ: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتُمنوا خانوا.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسيره قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾** ﴾

صفاتٌ تلك نتائجُها، وهذا جزاءُ أهلها ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ** ﴾، أمَّا الذين اتُّصفوا بالوفاء بالعهد، وهم يَصِلُون ما أمر الله به أن يوصَلَ، ويُصلحون في الأرض ولا يُفسدون، الذين اتُّصفُوا بالصفات الحميدة فإنَّ الله ﷻ يُخبِرُ عنهم، بأن لهم عُقْبَى الدار، وهي العاقبةُ والنُّصرة في الدنيا والآخرة.

﴿ **وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ** ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبَذْل المعروف ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ أي: فيما يأتون وما يَذَرُون من الأعمـــال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سُوءَ الحساب في الدار الآخـــرة ﴿ **وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** ﴾ أي: عن المحارم والآثام، ففطموا أنفسَهم عنها لله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ **وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ** ﴾ بحدودها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها، وخشوعها على الوجه الشرعي المُرْضِي ﴿ **وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ** ﴾ أي: على الذين يجب

عليهم الإنفاق لهم، من زوجاتٍ وقراباتٍ وأجانب من فقراء ومساكين ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي: في السرِّ والجهر، لم يمنعهم من ذلك حالٌ من الأحوال، آناء الليل أو أطراف النهار ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي: يدفعون القبيحَ بالحَسَن، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل؛ صبراً واحتمالاً، وصفحاً وعفواً.

قال الله مُخبراً عن هؤلاء السُّعداء المُتَّصفين بهذه الصفات الحَسنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1]

تدبر صفاتِ هؤلاء، وأولئك السعداء والأشقياء ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ تلك صفات السعداء، وهذا جزاؤهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ وتلك صفات الأشقياء، وهذا مصيرهم، فانظر إلى آثار هؤلاء وأولئك، وزِنْ النتائج دُنيا وأُخرى، فسترى أن دُنيا الناس لن يستقيمَ لها حالٌ مع صفات الأشقياء الذين ينقضون عهد الله من

(١) الرعد: ٢٢- ٢٤

بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصَل، ويفسدون في الأرض. ولا بُدَّ لأَمْنِ الناس وسلامهم، واستقامَةِ أمرِهم، وصلاحِ أحوالهم من صفاتِ السعداء الذين يُوفُونَ بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يُوصَلَ. لا بُدَّ لصفاتِ هؤلاء أن تسود، ولا بُدَّ أن يُدْفَعَ بالتي هي أحسن؛ لتسلم دُنيا الناس من ظُلمٍ وفسادٍ.

إن حياةَ الناس لا تصلح ولا يستقيم أمرُها بكَذِبٍ وغدرٍ، وقَطيعةٍ ونَقْضٍ، وخيانة، ولا بُدَّ من دَفْعِ هذه الصفات بما شَرَعَ الله من ضوابطَ وحدود ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1]

ومن هنا أوجب الله على المؤمنين أن يكونوا قوةً عاملةً على إعلاءِ كلمةِ الله.

وفي إعلاءِ كلمةِ الله انتصارٌ للفضائل، ودَحْرٌ للرذائل..

في إعلاءِ كلمة الله تحقيقٌ للوفاءِ والأمانةِ، والبِرِّ والصِّلة، والحق والعدل، وهي صفاتٌ لا بُدَّ منها لأَمْنِ الناس وسلامِهم.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [2]

في إعلاءِ كلمة الله دَرْءٌ للفساد، وانتصارٌ للفضائل التي لا غِنى لأَمْنِ الناس عنها، وما لم ننتَصِر بفضلِنا لم نغلب بقوَّتنا.

والذين يرجونَ نَصْرَ الله عليهم أن ينصُروا الله أوَّلاً في أنفسهم، ولن يستطيعوا

(١) البقرة: من الآية ٢٥١.
(٢) الحج: من الآية ٤٠.

obeikandi.com

أن ينصروا اللهَ في مواجهةِ أهل الفساد ما لم ينصروه في أنفسهم، بتغليب أمره على أهوائهم. وإنْ هم خذلوا الله في الأولَى، فمحالٌ أن يطلبوا نَصْرَه في الثانية، وهو الذي جعل هذه بتلك، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ ﴾[1]

فلنتمسَّك – إذن – بصفات السعداء؛ فإنها لدُنيانا وأُخرانا. ولنجتنب صفات الأشقياء؛ فإنها دمارٌ لدُنيانا، وخُسرانٌ لأُخرانا.

نسألُ الله تعالى أن يجعلَنا من ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ ﴾[2]

(١) محمد: ٧.
(٢) الرعد: ٢٠، ٢١.

obeikandl.com